

أجرى المقابلة: وليد حبّاس*

الحاخام يعقوب م. رابكين، حول كتابه "معنى إسرائيل": الخط بين اليهودية والصهيونية مصلحة إسرائيلية



و«شعب إسرائيل» إلى القدس. وبالتالي، يعتبر هذا الكتاب «مرافعة نقدية» ليس فقط ضد الصهيونية، بل بالأساس لصالح الديانة اليهودية التي، كانت على مدار أكثر من ألفي عام قبل مجيء الصهيونية، تنأى بنفسها عن تحويل «العودة» إلى «أرض الميعاد» إلى مشروع سياسي دنيوي يقوم على العنف.

مقدمة

في تشرين الثاني ٢٠٢١، أصدر المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار» كتاب «معنى إسرائيل». وهو الترجمة العربية لكتاب الحاخام يعقوب م. رابكين الذي صدر بالفرنسية عام ٢٠١٤ تحت عنوان *Comprendre l'État d'Israël*، ثم بالإنكليزية عام ٢٠١٦ تحت عنوان *What is Modern Israel?*. في مقدمة المترجم للطبعة العربية، يعرف حسن خضر الكتاب كالتالي: «يستمد هذا الكتاب أهميته من كونه يمثل مرافعة نقدية ضد الصهيونية وإسرائيل من وجهة نظر دينية يهودية». في الكتاب، الذي يعتبر إضافة نوعية للمكتبة العربية، يعكف المؤلف على «تخليص» اليهودية من كل التحريفات والقلوبات التي أدخلتها كل من الأيديولوجيا القومية الصهيونية والممارسة الاستعمارية الإسرائيلية إلى التعاليم اليهودية المتعلقة بأرض الميعاد، ومفهوم الخلاص،

* باحث في مدار

«وعليه، فبالنسبة للتعاليم اليهودية، لا ينبع وجود اليهود في المنفى من قصور لديهم، أو انعدام قيادة سياسية قادرة على تجميعهم في «أرض إسرائيل»، وإنما لأنها مشيئة الرب. لكن لا بد من الإشارة إلى أن فكرة العودة إلى «أرض إسرائيل» تظهر في أكثر من صلاة أو نص ديني. هنا لا بد من التمييز بين النص نفسه والسياق الذي قيل فيه وبين التأويل الصهيوني اللاحق لهذا النص».

دولة إسرائيل الصهيونية، لكنها (أي المقابلة) لا تشكل بديلاً لقراءة الكتاب.

سؤال: يبدأ الفصل الأول من كتاب «معنى إسرائيل» بتفحص مكانة «أرض إسرائيل» في الديانة اليهودية. هل تستطيع أن تستعرض لنا هذه المكانة، وكيف تحولت بين يدي الصهيونية؟

للوهلة الأولى، قد تبدو العلاقة بين اليهود و«أرض إسرائيل» متناقضة. ورغم أن هذه العلاقة تحظى بمكانة خاصة في الهوية اليهودية، إلا أن اليهود خلال تاريخهم الطويل ما قبل الصهيونية، والذي يمتد إلى أكثر من ألفي عام، لم يحاولوا أبدا الهجرة للاستقرار في «أرض إسرائيل» بشكل جماعي. ولا ينبغي أن تكون ثمة مفاجأة في ذلك، إذ إن المصادر الدينية اليهودية لا تتفق في ما بينها في ما يخص الحدود الجغرافية أو موطن اليهود. فالوعد الإلهي لسيدنا إبراهيم لا ينطوي بأي طريقة على وعد بأن «أرض الميعاد» هي ملك لليهود. وهذا يظهر بكل وضوح من خلال إصرار إبراهيم على دفع الثمن مقابل قطعة الأرض التي سيدفن فيها زوجته سارة (التكوين ٢٣: ٦-١٣).

في هذا الشأن، يذكر التلمود وجود ثلاثة أقسام (من قَسَم) أمام الرب عشية شتات اليهود في أرجاء المعمورة: أقسم اليهود أنهم لن يعودوا بشكل جماعي وبالْقُوَّة إلى «أرض إسرائيل»، وأقسموا أيضا ألا يتمردوا على بقية الأمم، بينما أقسمت «الأمم» ألا تُفرط في إخضاع اليهود. تحتل هذه الأقسام الثلاثة مركز الصدارة في أي نقاش بشأن جواز استخدام القُوَّة في الديانة اليهودية بهدف الاستيطان الجماعي في الأرض المقدسة.

وتنبع أهمية الكتاب من الأطروحات العديدة التي يستمدّها المؤلف من النصوص الدينية اليهودية والصلوات والتراتيل والتي تشير بكل وضوح إلى أن الصهيونية (كحركة قومية ومشروع استعماري) كانت قد نفت التراث اليهودي القديم، وأنتجت مقابله يهودية مفبركة بهدف إحاطة الممارسة السياسية للمستوطنين الصهيونيين ببطانة ثيولوجية لاستمالة قلوب اليهود الذين باتوا يرون بدولة إسرائيل تجسيدا مدفوعا برعاية ربانية لتعاليم اليهودية. لكن أهمية الكتاب تنبع أيضا من أنه ينقد الصهيونية من خلال أدوات دينية يهودية خالصة، قد تحتاج إلى توضيحات وتبسيطات بالنسبة للقارئ العربي على الأقل. وعليه، قام باحثون من مركز «مدار» بإجراء مقابلة مع الراب رابكين لمراجعة الكتاب، وتلخيص أهم الأطروحات التي جاء بها.

ورابكين (المولود في العام ١٩٤٥) هو بروفسور متقاعد في جامعة منتريال-كندا، وصاحب مساهمات نوعية في الدراسات اليهودية النقدية. في العام ٢٠٠٦، نشر رابكين كتابه **التهديد من الداخل: قرن من المعارضة اليهودية للصهيونية** الذي تمت ترجمته إلى ١٤ لغة وشكل باكورة أعماله في نقد الصهيونية من منظور ديني يهودي. ينظر رابكين بعين الشك تجاه حل الدولتين في ما يخص الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وفي المقابل، يعتقد بأن الحل يكمن في إنشاء دولة واحدة ثنائية القومية تقوم على مبادئ المساواة والعدالة. تنقسم المقابلة، التي أجريت في ٢٧ تشرين الثاني، إلى خمسة أسئلة تحاول أن تضع بين يدي القارئ أهم ما خلص إليه رابكين في دراسته عن

وعليه، فبالنسبة للتعاليم اليهودية، لا ينبع وجود اليهود في المنفى من قصور لديهم، أو انعدام قيادة سياسية قادرة على تجميعهم في «أرض إسرائيل»، وإنما لأنها مشيئة الرب. لكن لا بد من الإشارة إلى أن فكرة العودة إلى «أرض إسرائيل» تظهر في أكثر من صلاة أو نص ديني. هنا لا بد من التمييز بين النص نفسه والسياق الذي قيل فيه وبين التأويل الصهيوني اللاحق لهذا النص والذي شحنه بمضامين سياسية تم إدخالها عنوة لاستنطاق النص الديني بإيماءات سياسية صهيونية.

فمثلاً، نص الصلاة التي يتلوها اليهودي المتدين، ثلاث مّرات في اليوم، يشير بشكل جلي إلى فكرة المنفى: «مبارك أنت أيها الرب، الذي جمع المشتتين من شعبه إسرائيل. أعد لنا قُضاتنا كما في قديم الزمان، وناصحينا كما في الأول». وهناك أيضاً نص آخر (نص الصلاة بعد تناول الطعام) يتلوها اليهودي المتدين كلما أكل خبزاً، ويتضمن إشارات قوية تتكلم عن العودة إلى الأرض المقدسة، وختامه تؤسل «متقد:» «أعد بناء القدس، مدينتك، مبارك أنت أيها الرب، الذي يُعيد بناء القدس برحمته». يستخدم البعض الإشارات إلى القدس في هذه الصلوات لإضفاء شرعية على سيطرة دولة إسرائيل على المدينة المقدسة. لكن من وجهة نظر الملتزمين بالتراث اليهودي فهي تعني النقيض، أي التخلي عن كل مظاهر السلطة الدنيوية مقابل طلب الرحمة الإلهية، التي بفضلها، وفقط بفضلها، يمكن جلب الخلاص. فتأويل هذه النصوص واستخدامها كدعوة للتحرر القومي (الذي لا ينتظر رحمة الرب، وإنما يدعو إلى فعل دنيوي سياسي) يبدو تشويهاً لمضامينها الواضحة، ويشكل مفارقة تاريخية.

كان المفكر السياسي شلومو أفنيري ممن أشاروا إلى الطبيعة المتناقضة لعلاقة اليهود بـ«أرض إسرائيل»، حيث لفت الانتباه إلى أن اليهود لم يبذلوا أي جهد قبل الصهيونية للاستقرار بصورة جماعية في «أرض إسرائيل»:

رغم كل حدتها العاطفية والثقافية والدينية، إلا أن هذه الصلة بفلسطين لم تغرّ قاعدة حياة اليهود في الشتات: فهم قد يصلّون ثلاث مّرات في اليوم من أجل الخلاص، الذي سيغيّر العالم، ويأخذهم إلى القدس، ولكنهم لم يهاجروا إليها (من خلال

مشروع سياسي)، وفي وسعهم الحداد سنوياً على تدمير الهيكل في التاسع من آب [اليوم التاسع من شهر آب حسب التقويم اليهودي]. وأن يتركوا طوبة غير مكسوة في أعلى أبواب بيوتهم كتذكير دائم بخراب صهيون، ومع ذلك لم يتحركوا إلى هناك.

أما الصلاة في المناسبات الشعائرية، التي يحتفل بها اليهود من ممارسي التعاليم الدينية، فإنها أيضاً تلقي الضوء على المكانة التي تحظى بها «أرض إسرائيل» خصوصاً في عيد الفصح اليهودي، ونزول التوراة، والعُرش، التي احتفل بها اليهود في القدس في فترة الهيكل، وفيها يعلن يهود إسرائيل تماماً كما يفعل اليهود في كل أرجاء العالم، التالي:

«يا رب، رب آبائنا، نُفينا على خطايانا، وعن ترابنا أبعدنا.. فاجعل المشتتين بين الأمم قريبين، وضع نهاية لشتاتنا في أقاصي الأرض، أعدنا إلى صهيون، مدينتك، في ترتيب قرح، وإلى القدس بيت مكانك المقدس، في النعمة الأبدية».

وفي الوقت الحاضر، رغم أن حوالى نصف يهود العالم يعيشون في إسرائيل، إلا أن كتب الصلوات الأرثوذكسية بقيت على حالها، دون تعديل، ما أزعج بعض محدثي هذا التيار في اليهودية. ثيولوجيا، فإن على اليهود أن يبقوا في المنفى.

سؤال: في كتابك، أنت تحاول أن تميز ما بين الدين والإثنية والقومية. ثم تحاول أن تبين كيف أن الأيديولوجية الصهيونية قامت بخلط هذه المفاهيم بعضها مع بعض. أخبرنا كيف قامت الصهيونية بذلك؟

يقدم الفيلسوف اليهودي البريطاني، ليون روث، تعقيباً واضحاً من شأنه أن يزودنا بخلفية النقاش في هذا الموضوع: «كانت اليهودية دائماً أعظم من مجموع أتباعها. اليهودية خلقت اليهودي لا العكس.. فهي تأتي أولاً، هي ليست ناتجاً، بل هي برنامج، واليهود وسائل لتحقيقه». ولكي نضع اليد على التعقيدات الكامنة في كل نقاش حول اليهود منذ القرن التاسع عشر، علينا بداية تدقيق النظر في ظاهرة العلمانية: أي هجران «نير التوراة ووصاياها» الذي يمثل الانفصال بين الهوية «اليهودية» والديانة اليهودية. ففي وصف اليهودي قبل القرن التاسع عشر، أي قبل انتشار الصهيونية كمشروع قومي استعماري، أشار الناس إلى اليهودي المعياري

«لا شك أن دولة إسرائيل نجحت نجاحاً باهراً في تحويل نفسها إلى عنصر مركزي بين أوساط الجماعات اليهودية في أنحاء العالم. بالنسبة للعديد من اليهود، فإن الأمر ساهم في تحويل الهوية الدينية إلى هوية سياسية. علينا أيضاً أن نتذكر أن مؤسسي الاستيطان الصهيوني في فلسطين لم يخفوا ازدراءهم للديانة اليهودية. بل أرادوا أن يصنعوا «اليهودي الجديد» أو «العبري الجديد»».

سياسية. وعلينا أيضاً أن نتذكر أن مؤسسي الاستيطان الصهيوني في فلسطين لم يخفوا ازدراءهم للديانة اليهودية، بل أرادوا أن يصنعوا «اليهودي الجديد» أو «العبري الجديد». في هذا السياق، فإن المثقفين الإسرائيليين، مثل بوعاز عبرون (Boaz Evron) وآخرين من مناهضي الصهيونية المتحمسين، يتفقون على أن الصهيونية كانت عملياً نفيًا لليهودية. لعبرون وجهة نظر، فهو يخلخل تلك العاطفة التي لطالما منعت أي نقاش عقلاني حول الصهيونية وإسرائيل:

«إن دولة إسرائيل»، كما باقي دول العالم، تولد وتندثر... لكنني أعتقد أن الشعب اليهودي سيظل حياً طالما أن هناك ديانة يهودية. إن وجود دولة إسرائيل ليس ذا أهمية بالنسبة للشعب اليهودي... فاليهود في كل أنحاء العالم قادرون على الحياة بدون هذه الدولة». وثمة جماعات مهمة تعارض الصهيونية وموجودة بين تيارات مختلفة من اليهود ابتداء من الحريديم وصولاً إلى الإصلاحيين. هؤلاء اليهود يرفضون الصهيونية، مع أن بعضهم يعيش داخل دولة إسرائيل الحديثة. تشمل هذه الجماعات، على سبيل المثال، المجموعة الحسيدية أتباع ساتمر (Satmar Hasidim)، وهي واحدة من أكبر الجماعات الحسيدية. وخارج إسرائيل، وتحديداً في أميركا الشمالية، هناك شبان يهود عديدون غير مرتبطين بإسرائيل، ويمارسون اليهودية بشكل روحاني، ويستند بعضهم إلى قيم يهودية معنوية وأخلاقية للانخراط في فعاليات مناصرة للفلسطينيين. بعض مناصري إسرائيل قلقون من ازدياد هذه التباعد بين الشبان اليهود (في أميركا تحديداً) وبين دولة إسرائيل، ويرون أنه يمكن الاعتماد على المسيحيين الأفنجيليين أكثر من الشباب اليهودي كمصدر دعم لدولة إسرائيل». هذا يعيدنا إلى

باعتباره شخصاً يجب أن يتماشى سلوكه مع عدد معين من المبادئ المنبثقة عن اليهودية. وبهذا تكون اليهودية هي القاسم المشترك. ورغم أن اليهود قد ينتهكون التوراة، إلا أنهم لا يرفضون صلاحية الإطار الذي تقدمه. وفي هذا الصدد تنتصب عبارة «وأنتم تكونون لي مملكة وأمة مقدسة» (الخروج ٦:١٩) كقاعدة، ونداء، ومصدر إلهام. ومع ذلك، لا يمكن أخذ النص التوراتي بمعنى أن اليهود «أمة مقدسة» بحكم طبيعتهم، أو أن الأرض المقدسة تضيف عليهم أي نوع من القداسة.

لكن علمنة أوروبا كان لها تأثير على العديد من اليهود. فمع أنهم توقفوا عن الامتثال للتعاليم الدينية، إلا أنهم ظلوا يزرعون تحت الاضطهاد، خصوصاً في الإمبراطورية الروسية. أنتج هذا السياق هوية جديدة تحاكي الهويات القومية التي تتوق إلى الاستقلال والتي ظهرت عشية القرن العشرين، مثل: البولنديين، الليتوانيين.. الخ والذين كان معظم يهود روسيا يعيشون بين ظهرانيهم. من داخل هذا الوسط المعلمن (من علمانية) جاء المستوطنون الصهيونيون الأوائل الذين سيصبحون قادة إسرائيل بعد العام ١٩٤٨. بالنسبة لهم، أصبحت اليهودية عبارة عن قومية.

سؤال: اليوم، وبعد حوالي قرن كامل على هجرات المستعمرين الصهاينة إلى فلسطين، وبعد حوالي ٧٣ عاماً على قيام دولة إسرائيل، هل ما يزال هناك مجال للتفكير في اليهودية بمعزل عن الصهيونية؟
لا شك أن دولة إسرائيل نجحت نجاحاً باهراً في تحويل نفسها إلى عنصر مركزي بين أوساط الجماعات اليهودية في أنحاء العالم. بالنسبة للعديد من اليهود، فإن الأمر ساهم في تحويل الهوية الدينية إلى هوية

«ألهمت الصهيونية المنفلتة من عقالها ذلك الجناح في اليمين العالمي الذي يُعلي من شأن القومية الإثنية. فالقوميون البيض في جنوب أفريقيا، مثلاً، تماهوا مع إسرائيل، ومنحوها تأييدهم منذ العام ١٩٤٨، رغم أن حزبهم القومي لم يفتح أبواب عضويته لليهود. وقد عكس التعاون الوثيق القائم بين الدولة الصهيونية في آسيا، ودولة الأبارتهايد في جنوب أفريقيا لقاء المصالح من جهة، ومن جهة أخرى عكس أيضاً أوجه الشبه الأيديولوجية».

وبكل حماسة إلى داعمة لإسرائيل. وآخر ظاهرة مستهجنة من هذا القبيل هو المتطرف اليميني الفرنسي أريك زيمور (Eric Zemmour)، وهو يهودي من أصول يهودية جزائرية يُعتبر داعماً متحمساً لإسرائيل، الذي يدعو إلى الدفاع عن الحضارة المسيحية من خطر «البربرية الإسلامية». العديد من اليهود في فرنسا لا يستسيغونه، ويجدون أنفسهم مضطرين إلى الاختيار ما بين أمرين: إما تأكيد قيم الليبرالية (في فرنسا يدعونها قيم الجمهورية) التي خدمتهم لفترة طويلة وسمحت لهم بالعيش بسلام ومساواة، وإما الوقوع في شرك القومية التي تشمل بطبيعة الحال الدعم المنفلت من عقاله لدولة إسرائيل.

وإسرائيل تقدم نفسها باعتبارها مدافعاً عن اليهود أينما كانوا، وهي بذلك تحاكي الدور الذي لعبته قوى أوروبية على مدى القرون الماضية (وهو دور مدفوع باعتبارات سياسية) عندما ادعت أنها تحمي المسيحيين في الأرض المقدسة والذين كانوا في حينها تحت السيادة العثمانية.

جعلت الأيديولوجيا الصهيونية الرسمية من إسرائيل دولة بلا حدود، إذ يمكنها التوسع، من ناحية جغرافية، بالغزو العسكري أو الاستعمار. وقد بذلت الحركة الصهيونية، والحكومات الإسرائيلية المتعاقبة جهوداً مضنية للحيلولة دون تعريف الحدود التي يتصورونها لدولتهم. وتتجسد صورة دولة بلا حدود، أيضاً، في زعم إسرائيل بأنها لليهود العالم لا لمواطنيها. هذا بدوره يؤدي إلى تحويل متزايد للمنظمات الصهيونية حول العالم، بصورة علنية، إلى تابع لإسرائيل. بيد أن هذه المنظمات بدأت مؤخراً تخسر

جذور المسيحية البروتستانتية لبعض الأفكار السياسية مثل فكرة «جميع الشتات» التي أسترعظها في كتابي. واليوم، تعتبر أصوات الأنجلييين من أعلى الأصوات في العالم، وتمتد من الولايات المتحدة حتى البرازيل وصولاً إلى كوريا الجنوبية. فضلاً عن ذلك، فإن عدد المسيحيين الصهيونيين اليوم أكثر بكثير من مجموع كل يهود العالم (بما يشمل الأطفال منهم).

سؤال: تحتاج في كتابك بأن الصهيونية لا تتوافق مع مبادئ الليبرالية السياسية. واليوم، لا يمكننا التفكير بإسرائيل بمعزل عن انزياحها الجارف نحو اليمينية والتطرف. وفق هذا التوصيف، لا تزال إسرائيل ناجحة، إلى حد ما، في إدارة علاقاتها مع الجماعات اليهودية حول العالم. كيف ترى الأمر من منظورك؟

ألهمت الصهيونية المنفلتة من عقالها ذلك الجناح في اليمين العالمي الذي يُعلي من شأن القومية الإثنية. فالقوميون البيض في جنوب أفريقيا، مثلاً، تماهوا مع إسرائيل، ومنحوها تأييدهم منذ العام ١٩٤٨، رغم أن حزبهم القومي لم يفتح أبواب عضويته لليهود. وقد عكس التعاون الوثيق القائم بين الدولة الصهيونية في آسيا، ودولة الأبارتهايد في جنوب أفريقيا لقاء المصالح من جهة، ومن جهة أخرى عكس أيضاً أوجه الشبه الأيديولوجية بين المشروعين (الصهيوني والجنوبي أفريقي).

وهناك العديد من جماعات اليمين المعروفة بماضيها المعادي للسامية (مثل «حزب الحرية» الهولندي، «المصلحة الفلمنكية» في بلجيكا، «رابطة الدفاع الإنكليزية» في المملكة المتحدة، و«التحالف من أجل مستقبل النمسا» في النمسا) التي تحولت مؤخراً

دعم الشبان اليهود، كما أن رؤية المنظمات اليهودية المناصرة لإسرائيل لا تبدو على أحسن ما يرام. إن انتماء إسرائيل إلى معسكر اليمين القومي القائم على التمييز العنصري يجعل كلاً من اليهود وغير اليهود ينفرون منها.

سؤال: حسب رأيك، كيف يمكن للفلسطينيين أن يوظفوا الفهم النقدي لليهودية في معرض صراعهم ضد الاستعمار الاستيطاني في فلسطين؟

أنا لست سياسياً ذا نظرة استراتيجية. ربما واحدة من النصائح التي يمكن إعطاؤها هي حول ضرورة تجنب الخلط ما بين اليهود والصهيونيين (معظم الصهيونيين بالمناسبة هم من المسيحيين وليس من اليهود)، أو ما بين اليهودية والصهيونية. هذا الخلط

مهم بالنسبة لإسرائيل، بل إنها تستخدمه كأساس لماصرة كل الأصوات المناهضة للصهيونية بدعوى أنها نوع من أنواع معاداة السامية. كما يجب علينا أن نشدد على ضرورة معاملة إسرائيل كأى دولة أخرى. والمفارقة الساخرة تكمن في أن بن غوريون نفسه هو من دعا إلى معاملة إسرائيل كدولة طبيعية. هذا لا بد أن يشمل (طالما أنها دولة طبيعية) الحق في انتقادها، إدانتها، ومقاطعتها. ومن المهم تقوية أواصر العلاقات بين الناشطين الفلسطينيين وبين الجماعات اليهودية، والتوضيح أن السعي لإحقاق العدالة بالنسبة للفلسطينيين لا يجب أن يُختزل في اعتبار قضيتهم قضية عربية أو إسلامية وحسب، وإنما قضية حقوق إنسان عالمية تتعلق بكرامة الإنسان.